مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: الصفات البشرية للآلهة في حضارة بلاد الرافدين القديمة
اسم الكاتب: د. حسان عبد الحق
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2886
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 01:49 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

الصفات البشرية للآلهة
في حضارة بلاد الرافدين القديمة

د. حسان عبد الحق*

الملخص:

ظهرت المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين منذ فترات موغلة في القدم، وكان الرافديون يعتقدون أن الآلهة تتشابه مع البشر، فهي تتزوج، وتأكل، وتنام مثل الإنسان. وأسست هذه الآلهة مملكة شبيهة بمملكة البشر، وعلى رأسها إله أكبر يحكمها، شبيه بالملك الذي يحكم مملكته. وكان هذا الإله الملك يمارس سلطته على آلهة أخرى تقوم بتنفيذ أوامره لإعمار الكون. وينقسم مجتمع الآلهة إلى عدة طبقات شبيهة بالطبقات الاجتماعية في المجتمع البشري، وهناك فوارق اجتماعية كبيرة بينها؛ إذْ يضم المجتمع الإلهي آلهة ثرية ذات مكانة مرموقة، وآلهة فقيرة أشبه بالعبيد، والجدير بالذكر آن الآلهة الرافدية كانت تتحارب كما يتحارب البشر، والآلهة الصغرى ثارت ضد الآلهة الكبرى، مما يذكرنا بثورات البشر. ويُعتقد أن ثمة أسباب دفعت الرافديين إلى إعطاء آلهتهم هذه الصفات البشرية، وسيحاول البحث تحديدها. ومن أهم الأسباب التي دفعتنا لاختيار هذا البحث الرغبة في تقديم بحث جديد لم يتطرق إليه الباحثون سابقًا، ولتوضيح الأسباب التي دفعت الرافدين إلى تبني هذا الفكر.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

Les caractéristiques humaines des divinités dans l'ancienne civilisation mésopotamienne

Dr. Hassan Abdulhaq[**]

Résumé

Les croyances religieuses sont apparues en Mésopotamie depuis l'Antiquité. Les Mésopotamiens ont pensé que les dieux étaient semblables aux humains, car ils se mariaient, mangeaient et dormaient comme eux. Ainsi ces dieux ont fondé un royaume, similaire à celui des humains, gouverné par le plus grand dieu, semblable à un monarque régnant sur son royaume. Ce dieu-roi exerçait également son autorité sur d'autres dieux chargés d'exécuter ses ordres afin de construire l'univers.

La communauté des dieux se divisait en plusieurs classes sociales comparables à celles de la société humaine, avec de grandes différences sociétales entre elles, puisque la communauté divine comprenait des dieux riches de haut statut et d'autres défavorisés qui ressemblaient davantage aux esclaves. Et il convient de noter que les dieux mésopotamiens se sont battus comme les humains, et les dieux mineurs se sont révoltés contre les grands, ce qui nous rappelle forcément les révoltes des humains. Notre recherche essaye de déterminer les raisons pour lesquelles les Mésopotamiens ont attribué à leurs dieux et déesses des caractéristiques humaines. Et ce qui nous a poussé surtout à mener cette recherche, c'est d'une part la nouveauté du sujet, le désir de traiter un thème qui n'a pas été encore étudié par d'autres chercheurs, et de l'autre, pour expliciter les raisons qui sont derrière ce choix que les Mésopotamiens ont adopté.

[**] Faculté des Lettres et des Sciences humaines, Département d'Histoire.

المقدمة:

ليس ثمة معلومات مؤكدة حول الفترة التي ظهرت فيها المعتقدات الدينية، فهناك من يرجعها إلى عصور ما قبل التاريخ[1]، لكن ما هو مؤكد أنها لم تظهر مصادفةً في بلاد الرافدين، بل كانت نتيجة تأمل الإنسان وتفكيره العميق بالظواهر الطبيعية الخارجة عن إرادته التي كانت تحدث في محيطه، مثل هطول المطر، والفيضانات، وشروق الشمس وغروبها، ونمو النباتات، وظهور القمر في السماء واختفائه. كل هذه الأمور آمن الإنسان أن هناك قوى خفية تحركها وتتحكم بها، وتفوق قوته، وليرضيها ويتقي شرها ألهها وعبدها، وقدم لها القرابين[2]، وشيد لها المعابد.

ومع إيمان الرافديين بتفوق الآلهة بكل شيء[3]، وبأنها خالدة، ولا تموت (باستثناء بعض الحالات كموت تموز وعشتار وعودتهما للحياة مجددًا، وقتل تيامات على يد مردوخ) إلا أنهم تبنوا مبدأ تشبيه الآلهة بالبشر[4]، فظهرت الآلهة في -كثير من الأحيان- شبيهة بالبشر، سواء بالشكل الخارجي (حسب المشاهد الفنية)، أم بالأفعال (حسب الأساطير). ويطرح بحثنا عدة تساؤلات ما هي أوجه التشابه بين الآلهة والبشر من وجهة نظر الفكر الرافدي؟ وما هي الأسباب التي دفعت الرافديين إلى إعطاء آلهتهم هذه الصفات؟ وما هي المبررات التي جعلتهم ينهجون هذا النهج في حياتهم؟ وسيحاول البحث تحديدها من خلال دراسة الصفات الإنسانية للآلهة الرافدية الجسدية والاجتماعية، وأنشطتها السياسية والعسكرية. فمن خلال معالجة هذه النقاط يمكننا تحديد المبررات التي جعلت الإنسان الرافدي يسعى إلى إعطاء آلهته صفات إنسانية.

ولكي نحدد هذه المبررات سيتبنى البحث المنهج الوصفي الذي سنستخدمه في وصف الصفات البشرية للآلهة بالاعتماد على المصادر المادية الفنية، والمصادر الكتابية، ثم سنحاول مطابقة هذه الصفات مع الصفات البشرية الحقيقية الشائعة في المجتمع الإنساني، ولاسيما ما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وذلك من خلال إجراء مقارنة بين الطرفين، وعلى ضوء هذه المقارنة سنحاول تحديد الدوافع التي دفعت الإنسان الرافدي إلى إعطاء الآلهة هذه الصفات. وللوصول إلى نتائج علمية

---

[1]- رشيد، فوزي: الديانة، حضارة العراق، جـ1، بغداد، 1985، ص: 184.

[2]- نعمة، حسن: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، 1994، ص: 18.

[3]- بوتيرو، جان: بلاد الرافدين الكتابة -العقل- الآلهة، ترجمة: الأب البير أبونا، مراجعة: وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ص: 257.

[4]- علي، فاضل عبد الواحد: الأدب، حضارة العراق، جـ1، بغداد، 1985، ص: 322.

ومنطقية سنأخذ بالحسبان وظائف الآلهة، وطبيعتها، ومكانتها؛ لأن هذه القضايا أدت دورًا مهمًا في مسألة تشبيه الآلهة بالبشر.

وممَّا جذبنا إلى هذا الموضوع قلة وسطحية الأعمال التي تناولت الصفات البشرية للآلهة، فعندما نقرأ عنها في بعض الكتابات نلاحظ أن الباحثين أدرجوها ضمن الأبحاث العامة التي تتحدث عن الحياة الدينية في بلاد الرافدين. ولو كُتب عنها في أبحاث خاصة بها، وليس سهلًا على الباحثين الإحاطة بها؛ لكثرة الآلهة في المجمع الإلهي الرافدي، وتشابك هذا الموضوع. وحفزتنا هذه العوامل على البحث في هذه المسألة بغية تقديم عمل خاص بالصفات البشرية للآلهة يكون بعيدًا قدر المستطاع عن المعتقدات الدينية الرافدية العامة.

أولًا: الصفات الجسدية (الهيئة والمظهر الخارجي):

أدى الفن بأنواعه المختلفة (نحت بنوعيه نافر ومجسم، ورسوم جدارية، ونقوش على الأختام، ورسومات على الفخار...الخ) دورًا جوهريًا في تجسيد أشكال الآلهة كما تصورها الإنسان الرافدي القديم، فقد صور الكثير منها على هيئة بشرية (نينجرسو إله الحرب، إنانا ربة الحب والخصب، شماش إله الشمس، نانا إله القمر، الراعي الصالح دموزي إله الخصب ...إلخ)، لكن دون عاهات أو نقص أو وهن، وكان بعضها من الجنس المذكر، وبعضها الآخر من الإناث[5]. وظهرت الآلهة في وضعيات مختلفة (الوقوف أو الجلوس) في المشهد[6]، وتميزت بملامحها الواضحة، وارتدت الثياب نفسها التي كان يرتديها الإنسان في العصور القديمة، وكان بعضها يتزين كما يتزين البشر أيضًا.

ومع التشابه الكبير بين الطرفين في الصفات الجسدية اختلفت الآلهة عن البشر بغطاء الرأس، فقد كان يغطي رؤوس معظمها تاج مؤلف من صف أو عدة صفوف من القرون، وهي أشبه بقرون الثور[7]، وكان بعضها مزودًا بأجنحة كإشارة إلى مقرها السماوي.

ويرى كريمر أن الإنسان الرافدي كان يؤمن بأن الآلهة تتشابه مع الإنسان من حيث الشكل[8]، وعليه قد يكون ذلك هو الدافع الذي دفعه إلى تصويرها على هيئة بشرية. في

---

[5]- بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، 1993، ص: 12.

[6]- عبد الحق، حسان: المؤثرات الدينية في الفن في الفترة الممتدة من بداية عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان(123-124)، 2013، ص: 47-48.

[7]- الجادر، وليد: الأزياء والأثاث، حضارة العراق، جـ4، بغداد، 1985، ص: 330.

[8]- كريمر، نوح صموئيل: هنا بدأ التاريخ (حول الأصالة في حضارة وادي الرافدين)، ترجمة: ناجية المراني، دار الجاحظ لنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980، ص: 64.

حين يعتقد بوتيرو أن الإنسان الرافدي نحى هذا المنحى لفهم الآلهة واستيعابها؛ لأن هذا يُعد واجبًا دينيًا[9]. ونستبعد أن يكون الرافديون قد اعتقدوا بتشابه الآلهة مع البشر بالشكل، ونرجح أن يكون تمثيلها على هيئة البشر لاستيعابها، وللتمكن من التواصل معها عبر الطقوس الدينية التي كانت تقام في المعابد التي كانت تضم في إحدى قاعاتها (الحرم) التمثال البشري للإله. لكن هذه الأسباب عامة، ولكي نفهم الأسباب الحقيقة سنقوم بدراسة بعض النماذج الفنية التي تجسد الآلهة على شكل البشر.

بدأ الإنسان بتمثيل الآلهة على هيئة البشر منذ فترة الباليوليت الأعلى في أوربا (35-10 ألف ق.م) حينما صنع مشخصات عاجية وحجرية للمرأة العارية التي كانت تجسد الربة الأم[10]، رمز الخصوبة وتجدد الحياة في الطبيعة. وقد انتشرت دماها الطينية على نطاق واسع في الشرق الأدنى في العصر الحجري الحديث بعد ابتكار الزراعة؛ لأنها كانت ترمز إلى الأرض الزراعية وخصوبتها[11]. وتابع الفنان تجسيدها على شكل امرأة عارية في العصر الحجري النحاسي، فقد تم العثور على كثير من الدمى التي تصورها في المواقع التابعة لحضارتي حلف (5500-4500 ق.م)، والعبيد (4500-3500 ق.م) اللتين تمثلان حضارة العصر الحجري النحاسي.

وفي العصور اللاحقة (فجر الحضارة وما بعد) حافظت الآلهة المؤنثة على مكانتها وشكلها الإنساني، وظهرت إلى جانبها آلهة مذكرة، فصورها الفنان الرافدي على هيئة رجل. ومن الأمثلة عليها الإله دموزي (تموز)، إله الخصب الذي أظهرته طبعة ختم تعود إلى عصر أوروك[12] (3600-3100 ق.م) (**الشكل 1**) على هيئة راعٍ يقف بين رأسين من الماعز يأكلان من أغصان شجرة، ويمسكها بيديه. ويعود سبب تصويره على هيئة راعي إلى وظيفته المتمثلة برعي الحيوانات[13]، فقد أشار أحد الشعراء إلى وظيفته هذه في سياق وصفه للحوار الذي دار بين إنانا الرافضة للزواج منه (دموزي)، وبين أخيها أوتو الذي حاول إقناعها:

---

[9]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 256.

[10]- Stone. M: *Quand Dieu était Femme*, Editions l'Etincelle, Montréal, Paris,1989, p: 48.

[11]- Boustani. M. H: Le Néolithique de Liban dans le contexte du proche-oriental, Etat des connaissances, *Annale d'Histoire et d'Archéologie*, Université Saint-Joseph, Beyrouth, Vol(12-13), 2001-2002, p: 6.

[12]- Frankfort. H: *Cylinder Seals*, London, 1939, p: 15.

[13]- مرعي، عيد: عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016، ص: 46.

أختاه تزوجي من الراعي
أيتها العذراء إنانا لِمَ لا تقبلي
فسمنه طيب، ولبنه طيب[14]

الشكل(1): طبعة ختم نُقش عليها مشهد يصور دموزي مع رأسين من الماعز.
(عن Frankfort, 1939, Pl. III a)

وظهر دموزي بهيئته البشرية في أحد المشاهد المنقوشة على سطح إناء أوروك النذري العائد إلى عصر جمدة نصر (3100–2900 ق.م)، وكانت تقف على مقربة منه حبيبته إنانا (عشتار ربة الحب والخصب والجنس والحرب) التي جُسدت على هيئة امرأة (**الشكل 2**). والجدير ذكره أن تجسيدهما على هيئة البشر كان نابعًا من الفكر الديني السومري الذي سخر الفن لإيضاح المعتقدات الدينية[15]، فهذا اللقاء بينهما يمثل طقس الزواج المقدس الذي كان يُقام سنويًا في فصل الربيع رامزًا إلى عودة الحياة والخصب إلى الطبيعة[16].

الشكل(2): الحقل العلوي من إناء أوروك النذري، يحوي مشهدًا يمثل اللقاء بين إنانا ودموزي، ويقف بينهما رجل عاري يقدم لإنانا سلة مليئة بالثمار.

[14] علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ط1، دمشق، 1999، ص: 68.
[15] الجادر، وليد: النحت، حضارة العراق، جـ4، بغداد، 1985، ص: 18.
[16] مرعي، عيد: المرجع السابق، ص: 47–48.

ونستنتج مما سبق أن وظيفة الإله والفكرة التي أراد الرافديون التعبير عنها هما اللتان أثرتا بهيئته البشرية، وبمظهره الخارجي، وبتمثيله مستقلًا في المشهد، أو برفقة إله آخر. فمشهد الزواج كان يحتاج إلى زوج من الآلهة وأشكال أخرى (أضاحي وعبيد وسلال الثمار) لتجسيده، أما مشهد رعي الماشية فلا يحتاج إلا إلى إله واحد (دموزي) مع بعض الماشية لتصويره، وإظهار رمزيته. وينطبق ذلك على تمثال لإنانا يعود إلى بداية الألف الثالث ق.م، جسدها منفردةً على هيئة امرأة عارية واقفة، وهي تحيط ثدييها بيديها من الأسفل (**الشكل 3**). ويذكرنا هذا التمثال بدمى الربة الأم التي كانت ترمز إلى خصوبة الطبيعة من خلال أماكن الإنتاج والخصوبة في جسدها (الثديين، والفرج، والبطن). وهذا يعني أن إنانا جُسدت على هذه الهيئة لإظهار دورها كربة للخصب، ومما يؤكد ذلك قصيدة سومرية، نُسخت عام 1800 ق.م، تصورها على أنها مصدر الخصب:

ثدياك سيدتي حقلٌ معطاء
ثدياك، إنانا، حقل معطاء
حقل واسع يفيض بالزرع
حقل واسع يفيض بالحب
وبالماء الذي يتدفق–للمولى– من العلى
وبالخبز الخبز من العلى
فاسكبي لي، للمولى المطيع، لأشرب منه[17]

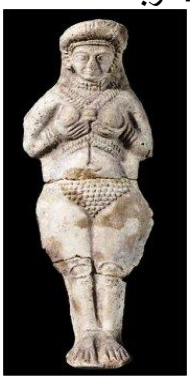

الشكل(3): تمثال لإنانا يعود إلى بداية الألف الثالث ق.م، يجسدها عارية (عن مرعي، 2016، الشكل 5)

[17]– علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ص: 19.

وأظهرتها إحدى القطع الفنية الطينية–العائدة إلى العصر البابلي القديم (2004–1595 ق.م) على هيئة امرأة محاربة أيضًا، واقفة بين رَجلين على جبل، كلاهما يحمل بلطة بيده، وتضع جعبة السهام على كتفها، وتدوس على أسد برجلها (**الشكل 4**). ويعود سبب تمثيلها على هذه الهيئة إلى وظيفتها الأخرى كربة للحرب.

الشكل 4: الربة عشتار المحاربة تقف بين اثنين من المحاربين.

(عن Margueron J.C , 2004, fig. 504)

وتقدم لنا الوثائق الفنية مشاهد أخرى تُجسد آلهة أخرى على هيئة بشرية، تتميز بمكانتها المرموقة في مجمع الآلهة، وبتأثيرها الكبير في الناس، مثل نانا إله القمر الذي ظهر في أحد مشاهد نصب أورنامو العائد إلى عصر سلالة أور الثالثة (2112–2004 ق.م) (**الشكل 5**)، وشماش إله الشمس الذي نُقشت صورته على نصب الشريعة المؤرخ بالعصر البابلي القديم (2004–1595 ق.م)[18] (**الشكل 6**). فقد جُسد كلاهما على هيئة رجل عظيم يجلس على كرسي العرش، ويقف أمامه الملك (نانا في نصب أورنامو، وشماش في نصب الشريعة)؛ ليحصل على مباركته في مشاريعه التي سيقوم بتنفيذها (أعمال أورنامو العمرانية، وأعمال حمورابي القانونية). وبتفحص الوثيقتين الفنيتين، وبالعودة إلى مجمع الآلهة الرافدي (انظر لاحقًا)، نلاحظ أن وظيفة الإلهين ومكانتهما أثرتا بمظهرهما الخارجي، فهما من الطبقة الإلهية العليا في بلاد الرافدين، وحسب ظهورهما بالمشهد، يمكن وصفهما بملكين يجلسان على عرشيهما، ومن مهامهما تسيير أمور الناس بمملكتيهما. وفي هذه الحالة من المستبعد تصويرهما على هيئة رجل محارب، أو راعي للماشية، ومن الطبيعي إظهارهما على هيئة الملوك الجالسين على عروشهم.

[18]– لمزيد من المعلومات عن نصب الشريعة؛ انظر: الجادر، وليد: النحت، ص: 58–59.

الشكل(5): حقلان من نصب أورنامو: العلوي يصور أورنامو وهو يسكب الماء المقدس في وعاء أمام الإله نانا تقربًا منه ليحصل على الدعم والتأييد، أما السفلي فيجسده حاملًا سلة على كتفه فيها أدوات بناء، وترمز إلى أعماله العمرانية.

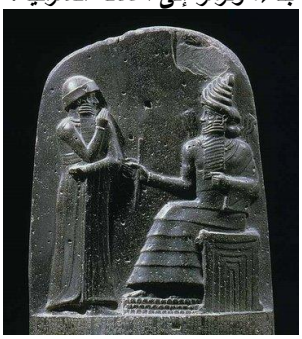

الشكل(6): القسم العلوي من مسلة حمورابي، يصور هذا الأخير واقفًا أمام إله الشمس ليحصل على دعمه في مشروعه القانوني. (عن لويد، 1992-1993، الشكل 108)

وفي العصر الكاشي (1595-1160 ق.م)، جُسدت الآلهة على هيئة بشرية مشابهة للهيئة التي ظهرت عليها آلهة العصرين السابقين، ففي مشهد منقوش على حجر كودور[19] يظهر الملك الكاشي ميليشباك الثاني (1188-1174 ق.م)، وهو يمسك بيد ابنته، ويتجه نحو ربة تجلس على عرشها **(الشكل 7)**. على الأرجح هذا الكودورو يوثق منح إقطاع من قبل الملك لابنته؛ لأن هذا النوع من الفنون ابتكر لهذا الغرض[20]. وعلى

[19]- هو حجر الحدود أو حجر تثبيت الأملاك والعقارات، شاع استخدامه على نطاق واسع في العصر الكاشي، وكان ينقش عليه حدود ومواصفات الإقطاع الذي كان يمنحه الملك الكاشي لأحد رجاله؛ انظر: باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، جـ1، ط1، دار الوراق، بيروت، 2009، ص: 502.

[20]- للحصول على معلومات مفصلة عن هذا الموضوع، انظر: رشيد، فوزي: حجر حدود من زمن الملك مردوك شابك زيري، سومر، المجلد(32)، بغداد، 1976، ص: 89-112.

غرار المشهدين السابقين فالربة تبدو لنا أشبه بملكة في عالم البشر، وأما الملك وابنته فيمكن تشبيههما بمن يراجع هذه الملكة رسميًا في قاعة عرشها لانتزاع الموافقة منها على منح الإقطاع لابنة الملك. وهذا يعني أن هذه الهبة (الإقطاع) هي السبب الرئيس الذي دفع الفنان الكاشي لتمثيل هذه الربة على هيئة ملكة جالسة على عرشها. ونستنتج من ذلك أن الفكر الكاشي كان يبحث عن صيغة شرعية وقانونية كغطاء لهذه الهبة، فوجد ضالته بتصوير الآلهة على شكل بشر يجيزون ويباركون هذه الهبات.

الشكل(7): كودورو ميليشباك الثاني يصور الملك وهو يقتاد ابنته ليقدمها للربة الجالسة على عرشها (عن الجادر، 1985، الشكل 39 ب)

واستمر الرافديون بتمثيل آلهتهم على هيئة بشرية لاحقًا، فعلى سطح إحدى اللوحات الجدارية الحجرية في قصر آشور ناصر بال الثاني (883–859 ق.م)[21] في كلخو نُقش مشهد نافر يصور الإله آشور[22] على هيئة رجل ملتحٍ يخرج من قرص الشمس المجنح، وهو يصوب قوسه نحو الأعداء **(الشكل 8)**. ليس مستغربًا تصويره بهذا الشكل، فهو إله الحرب الذي كان يأمر الآشوريين بشن الحروب التي تُعد واجبًا دينيًا مقدسًا، ومن واجبه مباركة انتصاراتهم[23] التي تعد انتصارًا وتكريمًا له. ويذكرنا هذا المشهد بنظيره الذي كان يمثل عشتار المحاربة، وهذا يعني أن وظيفته كإله للحرب هي التي دفعتهم إلى تمثيله بهذه الصورة التي أظهرته على هيئة قائد عسكري مقدام.

---

[21]– أحد أقوى ملوك الدولة الآشورية الحديثة والمؤسس الفعلي لها:؛ انظر ساغز، هاري: عظمة آشور، ترجمة: خالد أسعد عيسى، سامي سبانو، ط1، دار رسلان، دمشق، 2008، ص: 98.

[22]– هو إله الآشوريين القومي، وإله الحرب، أخذ أدوار مردوخ البابلي وإنليل في آشور؛ أي أنه كان يقف على قمة هرم السلطة الإلهي؛ كورتل، آرثر: قاموس أساطير العالم، ترجمة: سهى الطريحي، دار نينوى، دمشق، 2010، ص: 19.

[23]– الجادر، وليد: النحت، ص: 81.

الشكل(8): نقش نافر يُجسد الإله آشور على هيئة إنسان، يخرج من قرص الشمس المجنح، مصوبًا قوسه نحو الأعداء.

ونستنتج مما سبق أن الآلهة تشترك فيما بينها بالهيئة البشرية، لكنها تختلف بالمظهر الذي تظهر عليه في المشهد (عروسان ليلة الزفاف وراعي أغنام وامرأة عارية أو محاربة تحمل السلاح، وملك على العرش، وملكة على عرشها، ومحارب يحمل قوسه). ويعزى ذلك إلى المهام المتعددة التي كانت تقوم بها، فكل مشهد يلائم مهمة من مهامها. وأما سبب تمثيلها على هيئة بشرية، فربما يكمن في رغبة الفنان الرافدي بإيصال الأفكار المتعلقة بمهامها إلى الإنسان بطريقة مبسطة يستطيع أن يفهمها، فكما نعلم كل الهيئات التي ظهرت عليها الآلهة مستمدة من واقع الإنسان وحياته.

ثانيًا: الحياة السياسية والإدارية:

تبنت حضارة بلاد الرافدين -في فتراتها المختلفة- نظامًا سياسيًا وإداريًا، اعتمد مبدأ التسلسل الهرمي في السلطة، وظهر أول ما ظهر في عصر السلالات الباكرة في الألف الثالث ق. م[24]، واستمر في العصور اللاحقة، فعلى قمة الهرم الإداري والسياسي يتربع الملك[25] الذي كان يمنح السلطات إلى أشخاص أدنى منه[26] (حكام الولايات، وعدد كبير من الموظفين الذين كانوا يعملون بإمرته[27]، ومعاونون ونواب وقادة يأتمرون بأمره بما يخدم مصلحته، ويحميه، ويحافظ على مملكته[28]).

---

[24]- ظهرت الملكية في بلاد الرافدين حينما ظهرت المدن في سومر، فقد كان يحكم كل مدينة سلالة حاكمة؛ انظر: الشواف، قاسم: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، ج3، دار الساقي، بيروت، 1999، ص: 42/34.

[25]- يعد نظام الحكم الآشوري في الألف الأول ق.م من أنجح أنظمة الحكم الرافدية، وكان الملك يقف على رأسه، وكان يصدر القرارات المتعلقة بالدولة باعتباره نائب الإله على الأرض؛ انظر: البرواري، ريبر جعفر أحمد: الحملات العسكرية الآشورية على كوردستان، (911-612)ق.م، ط1، دار الموكرياني للطباعة والنشر، أربيل، 2012، ص: 53.

[26]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 248.

[27]- ينطبق ذلك على النظام الإداري الذي اتبعه حمورابي البابلي (1792-1750) ق.م، والذي ساعد على تأسيس مملكة قوية؛ انظر: ساغز، هاري: المرجع السابق، ص: 51.

[28]- يمكن التعرف على معاوني الملك من خلال نظام الحكم الآشوري في الألف الأول ق.م؛ انظر: البرواري، ريبر جعفر أحمد: المرجع السابق، ص: 53-54.

وإلى جانب الملك عرفت بلاد الرافدين المجالس السياسية، أو ما يسمى مجالس المدن التي ظهرت في العصر السومري الباكر (2900–2350 ق.م)، واستمرت في الفترات اللاحقة (الأكدية، والبابلية، والآشورية[29]) مجسدةً ديمقراطية بدائية[30]. ومن أهمها مجلس العموم (برلمان) الذي كان يضم الرجال الأحرار في المدينة، مهمته إقرار الحرب والسلم[31]، ومجلس الشيوخ[32] المكون من شيوخ المدينة الذي كان يعالج مختلف قضايا المجتمع، وفي أو قات الحروب كان يقوم باختيار قائد لإدارة الحرب والدفاع عن المدينة. ولمعالجة أي مشكلة فيه كانت تُطرح أمام الأعضاء ويناقشونها، ثم يأخذون قرارًا بالإجماع لحلها، أي أن رأي الأغلبية هو النافذ[33].

وتظهر كثير من تفاصيل النظام السياسي والإداري في مجمع الآلهة الرافدي الذي تبنى أيضًا مبدأ التسلسل الهرمي في توزيع المناصب. فللملكة السماوية الإلهية إله أكبر يتربع على عرشها، ومكانته أكبر من مكانة الآلهة الآخرين، ويُصدر الأوامر، وعلى الجميع التقيد بها وتنفيذها، وله وزير ونواب ينوبون عنه لتسيير أمور الكون. ومع مكانته وسلطته كانت قراراته تناقش–بطريقة ديمقراطية– ضمن مجلس الآلهة كما هو الحال في المجالس البشرية (مجلس الشيوخ ومجلس العموم)، ويجب الموافقة عليها من قبل الأغلبية[34]. وكانت تصطدم أحيانًا برأي آلهة معارضة من أمثال الإله إنكي (إله الحكمة والمياه العذبة).

ويعد الإله آن (آنو بالأكادية)، إله السماء السومري[35]، ملك الآلهة السومرية–البابلية[36]. وصفته إحدى الأساطير بصفات تؤكد ذلك:

---

[29]– سمار، سعد عبود؛ وحسين، عامر ناجي: مجالس المدن في العراق القديم (3000–1000)ق.م المهام والتأسيس، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد (14)، 2013، ص: 140.

[30]– تُعد مدينة كيش واحدة من المدن التي طبقت هذه الديمقراطية؛ مهران، محمد بيومي: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، ج2، د.ط، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص: 192.

[31]– كريمر، صموئيل: من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة: وتقديم أحمد فخري، د.ط، مؤسسة فرانكلين للطباعة، د.ت، ص: 82.

[32]– كريمر، نوح صموئيل: هنا بدأ التاريخ (حول الأصالة في حضارة وادي الرافدين)، ص: 22.

[33]– سمار، حسين: المرجع السابق، ص: 138.

[34]– تبنى مجلس الآلهة مبدأ المشاورة للوصول إلى القرار الأفضل والصائب، وتسرب ذلك إليه من مجالس البشر التي كانت تنظر في مختلف قضايا المجتمع معتمدة مبدأ المشاورة هي الأخرى؛ انظر: سمار، سعد عبود؛ وحسين، عامر ناجي: المرجع السابق، ص: 138.

[35]– براندت، إيفلين كلينكل: رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة: زهدي الداوودي، دار المدى للثقافة والنشر، 2010، ص: 87.

[36]– علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، مطبعة الإخلاص، 1975، ص: 30.

يا صاحب الصولجان، والخاتم،
يا من تدعو إلى الملكية،
يا سيد الآلهة، يا من كلمتك هي الغالية،
في مجمع الآلهة الكبار المقرر،
يا رب التاج المجيد[37]

ونظرًا لمكانته المرموقة كملك للآلهة ابتعد عن الآلهة، وعن القرارات الحاسمة التي اتخذتها في مجلسها، وتحول مع الزمن إلى رئيس رمزي[38]، لكنه ظل مصدرًا للسلطة وضامنها، ويمكن اللجوء إلى خبرته أثناء الأزمات[39]. و مما يؤكد ذلك ظهور ابنه إنليل على المسرح السياسي الإلهي كبديل عنه، و ممارسته الفعلية للسلطة السياسية الإلهية[40]، و إصداره كثيرًا من القرارات المصيرية في حياة البشر (انظر لاحقًا) التي لا تصدر إلا عن إله ملك، يتميز بقوته و سطوته، فحسب الوثائق القديمة، كان هو الملك الحقيقي للملكة السماوية، له صلاحيات واسعة أخذ بعضها عن أبيه آنو، و قد وصفته الوثائق السومرية ب"**ملك الأقطار كلها**[41]"، و **رئيس جميع الأحياء، و إله الأنوناكي (مجموع آلهة السماء) السامي**[42]، و ورد ذكره بصفة مشابهة في نص يعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م:

حينما يستقر إنليل الوقور في الجلال
على عرشه المقدس والرفيع،
حينما يمارس بكمال
سلطاته كسيد وملك،
يجثو بقية الآلهة أمامه[43]

وذكر هذا النص مفردات لها صلة ببلاط الملوك في الحضارات القديمة، مثل عرشه، وسلطاته، وملك ويجثو أمامه، مما يدل على إعطاء الإنسان الرافدي للإله الأكبر صورة مشابهة لصورة الملك في عالم البشر، سواء في اللقب والمنزلة (ملك ذو سلطة)، أم في

[37]- سليم، أحمد أمين: حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2011، ص: 331.
[38]- علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 31.
[39]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 259.
[40]- المرجع نفسه: ص: 259.
[41]- الجبوري، صلاح سلمان: أدب الحكمة في وادي الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص: 39.
[42]- الشواف، قاسم: المرجع السابق، ج3، ص: 37.
[43]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 253-254.

ذكر العرش الذي كان يجلس عليه الملك في قاعة العرش التي كانت مخصصة للعمل السياسي والإداري في القصر، أو في تصوير وضعية الجثي التي كان يؤديها الأشخاص الذين كان يُؤذن لهم بالدخول إلى قاعة العرش احترامًا وخضوعًا له، وتقديرًا لمكانته.

وبحسب أحد الآراء فقد إنليل دوره كملك للآلهة نحو سنة 1200 ق.م، وحل محله الإله مردوخ[44] الذي أصبح ملكًا للآلهة[45]. ولا نستطيع الوثوق بهذا التأريخ وثوقًا مطلقًا؛ لأن أسطورة الخلق البابلية (إنوما إليش) –التي تحدثت عن هذا الأمر– ربما تعود إلى العصر البابلي القديم مع أنها نقشت على ألواح تعود إلى القرن العاشر[46]، فكما هو معروف، فالعصر البابلي القديم كان عصرًا مزدهرًا عند البابلين، ومن المنطقي أن يبزغ نجم هذا الإله خلاله. وأما نقش الأسطورة على ألواح مؤرخة بالقرن العاشر، فيمكن تفسيره بأن هذا الحدث تم في عصر، وتناقلته الأجيال شفويًا، وتم تدوينه في عصر لاحق استنادًا إلى الرواية الشفوية.

وإلى جانب الإله الملك هناك آلهة أخرى تتسلسل إداريًا من الأعلى إلى الأدنى كما هو الحال في المملكة البشرية. ومن أهمها الإله الوزير، لم ينحصر هذا المنصب بإله واحد، بل تعددت الآلهة التي تبوأته (حسب كل أسطورة)، وتحدثت الأساطير عنه كمستشار للإله الملك، يستشيره في القضايا المهمة والمصيرية. وممن تبؤوا هذا المنصب مومو الذي كان وزير الأبسو (أبو الآلهة)، وهو الذي شجع الأبسو على قتل أبنائه (أجيال الآلهة) لكثرة ضجيجهم[47]. وتذكر المصادر أن الإله نسكو (إله الضوء والنار) كان وزير الإله إنليل[48] (إله الهواء)، وأن هذا الأخير كان يبلغه أوامره الكونية، ويكلفه بتنفيذها[49]، فهو الأقرب إليه، وحافظ أسراره، وإلى جانب الملك والوزير، كان مجمع الآلهة الرافدي يضم آلهة أخرى، شغلت مناصب كبرى في المملكة الإلهية، ترتبط بها

---

[44]– كان إلهًا هامشيًا قبل العصر البابلي القديم، وبدأ يسطع نجمه في عصر حمورابي، وأصبح الإله القومي للبابليين نتيجة الانتصارات التي حققها، وأصبحت بابل بفضله عاصمة لإمبراطورية مترامية الأطراف؛ انظر: ادزارد. د؛ بوب. م. ه؛ رولينغ. ف: قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب: محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987، ص: 160.

[45]– بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 260.

[46]– ادزارد. د؛ بوب. م. ه؛ رولينغ. ف: المرجع السابق، ص: 113–114.

[47]– علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 44.

[48]– هو إله سومري، استمرت عبادته في العصر الأكادي والبابلي والآشوري، أظهرته النصوص الأكادية على أنه إله النار والضوء، وصارت له مكانة مرموقة في مدينة حران في العصر الآشوري الحديث؛ انظر: ادزارد. د؛ بوب. م. ه؛ رولينغ. ف: المرجع السابق، ص: 169.

[49]– الشواف، قاسم: المرجع السابق، جـ3، ص: 38.

آلهة أدنى منها، تعمل تحت إمرتها. ومن بينها الإله إنكي الذي كان يُكون مع آن وإنليل الثالوث الإلهي الذي يمثل قمة هرم السلطة في مجمع الآلهة الرافدي[50]. وأعطته إحدى الأساطير لقب الأمير العظيم[51]، ووصفه بوتيرو بالمستشار الحاذق الذي كان يقف بجانب صاحب السلطة الحقيقي إنليل، ويقدم المشورة له، فقد تميز بحكمته[52]. نعم كان حاذقًا، لكن لا يمكن وصفه بمستشار إنليل دائمًا؛ لأن كثيرًا من القرارات المصيرية التي اتخذها إنليل بالاتفاق مع الآلهة الكبرى، لم يستطع إنكي تغييرها، فقد لعب دور المعارض الذي تتبين صحة وجهة نظره لاحقًا (انظر لاحقًا قرارات مجلس الآلهة).

إنه إله المياه العذبة، وكان يقع على عاتقه تزويد الفرات ودجلة والمستنقعات بالمياه، لسقاية الأراضي الزراعية، وكان مسؤولًا عن الأعمال العمرانية أيضًا. وللقيام بهذه المهام على الوجه الأكمل أوكلها إلى الآلهة التي كانت تعمل تحت إشرافه، وتأتمر بأمره، ومن أهمها أوتو/شماش[53]، وإنبيليلو (المشرف على القنوات والحقول ونهري الفرات ودجلة)، ونينا (مسؤولة عن الينابيع والأنهار والأمطار [54])، وإنكيمدو الفلاح[55]، وسومرجان (ملك الجبال وإله السهول)، ودموزي[56]، وجولا (ربة الطب والمسؤولة عن صناعة الطابوق)، ومشداما (المسؤولة عن بناء العمارات)[57]. ويمكن تشبيهه هنا بالمسؤول الكبير في عالم البشر، أما الآلهة التي تعمل تحت إمرته فهي أشبه بالموظفين الذين يأتمرون بأمره.

واصطبغ النظام السياسي في المملكة الإلهية السماوية بصبغة ديمقراطية مستوحاة من عالم البشر، وتتمثل بمجلس الآلهة الذي يُعد مؤسسة سياسية مهمة في المملكة العلوية السماوية، شبيهة بمجلس العموم والشيوخ اللذين ظهرا في العصر السومري الباكر في المملكة البشرية. وكان الإله آنو يترأس هذا المجلس بصفته رئيسًا للآلهة، وهو الذي يدعوها للاجتماع لمناقشة مختلف القضايا، وإيجاد الحلول لها بأخذ قرارات متفق عليها من قبل الأكثرية، ومع اتصاف المجلس بالديمقراطية، يبدو أن تأثير بعض الآلهة في أخذ القرار كان أكبر من تأثير آلهة أخرى، والدليل على ذلك ما أوردته أسطورة الخلق البابلية:

جلس الآلهة العظام الخمسون

---

[50]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 259.
[51]- الشواف، قاسم: المرجع السابق، جـ3، ص: 168.
[52]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 259.
[53]- الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وأكد وآشور، جـ1، ط1، بيروت، 1996، ص: 28.
[54]- الأسود: المرجع السابق، ص: 4.
[55]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 348.
[56]- المرجع نفسه: ص: 349.
[57]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 262.

آلهة المصائر سبعتهم رسخوا ديمومة القرار[58]

ومن أهم القرارات المتخذة في مجلس الآلهة تلك التي تتعلق بإرسال الطوفان والأمراض والأوبئة إلى البشر لمعاقبتهم على انحرافاتهم وظلمهم[59]. ويعد قرار الطوفان أكثر أهمية من القرارات الأخرى؛ لأن آثاره المدمرة كانت أكبر، وتناولته الأساطير السومرية والأكادية والبابلية.

إن إجماع الآلهة العظام على إحداث الطوفان يعد ممارسة ديمقراطية شبيهة بالممارسات الديمقراطية في عالم الإنسان. ويضاف إليها ممارسة ديمقراطية أخرى تتمثل بمعارضة إله الحكمة إنكي لهذا القرار بدافع الشفقة على البشر، لكنه لم يستطع إلغائه، وبعد انتهاء الطوفان مارس حقه في التعبير عن رأيه بانتقاد رئيسه إنليل، فقال له: **أنت أعقل الرجال أيها البطل لِمَ لم تمعن الفكر وأحدثت الطوفان؟**[60] ، وطلب منه أن يكفر عن ذنبه بمكافأة بطل الطوفان الذي صنع سفينة النجاة، وأنقذ بذرة البشر من الزوال، انصاع إنليل لطلب إنكي، وصعد إلى سفينة النجاة، وهناك التقى بالبطل ومنحه الخلود[61].

وتبرز الديمقراطية الإلهية في قرار آخر اتخذه الإله إنليل لمعاقبة البشر، ورد ذكره في قصة أتراخاسيس البابلية، واعترض عليه الإله إيا (إنكي)، وأنقذ البشرية من الفناء. فقد ورد في هذه القصة أن عدد الناس تزايد وزاد ضجيجهم، فاجتمع الآلهة العظام في مجلسهم، وأخبرهم إنليل بأنه لم يعد يذوق طعمًا للراحة لكثرة الضجيج، فقرروا معاقبة البشر بالجفاف والمجاعة. ولتنفيذ هذا القرار، أمر إنليل الإله أدد بحبس المطر عن الناس، والإله إيا بمنع مياهه العذبة بالتدفق، والربة نيسابا (إلهة الحنطة) بإيقاف تدفق ثدييها من الحبوب. ولقي هذا القرار معارضة من قبل إيا الذي أرشد أتراخاسيس إلى الطريقة التي يستطيع من خلالها إنقاذ البشرية من الهلاك، والتي تتمثل ببناء معبد للإله أدد، وتقديم التقدمات له. وأخذ أتراخاسيس بنصيحة إيا، فأرسل أدد الأمطار، وعاد الخصب إلى الطبيعة، فأنتجت الحقول الحبوب[62].

وفي الختام نتساءل عن سر إعطاء الآلهة صفات إنسانية وإظهارهم على شكل موظفين ينتمون إلى نظام إداري وسياسي اعتمد مبدأ التسلسل الهرمي في توزيع السلطات عليهم؟ وكان الإنسان الرافدي يؤمن بأن هناك آلهة تقوم بإدارة الكون، ولكي

---

[58]- حنون، نائل: حينما في العلى قصة الخليقة البابلية، دار الزمان، دمشق، 2006، ص: 187.

[59]- علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 31.

[60]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 332.

[61]- علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 33.

[62]- المرجع نفسه، ص: 60.

يفهم الناس آلية عملها أعطاها عباقرة الفكر الرافدي هذه الأدوار السياسية والإدارية بملامح بشرية، ومن جهة أخرى نعتقد أن صناع هذا الفكر أرادوا تفسير بعض الظواهر الطبيعية كالطوفان والجفاف، فعزوها إلى الآلهة التي أخذت القرارات المتعلقة بها، ولا يمكن فهم آلية أخذ القرار إلا بتصوير الآلهة على شكل بشر يجتمعون ويتناقشون ويأخذون قراراتهم.

ثالثًا: الحياة الاجتماعية:

كان للآلهة سلوك اجتماعي شبيه بسلوك البشر، ويظهر ذلك في مسألتين رئيسيتين:

1- التقسيم الطبقي:

شاع في الحضارات القديمة نظام اجتماعي يقوم على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات، وتتكون طبقته العليا من أثرياء المجتمع الذين يتفاوتون فيما بينهم بالثراء والوظائف، في حين يمثل العبيد طبقته الدنيا. وينطبق ذلك على المجتمع الرافدي في العصور القديمة الذي كان يتألف من فئتين رئيسيتين: **الأولى** هي فئة الأحرار، التي تنقسم إلى عدة طبقات، وتتكون الطبقة العليا من الملك ورجال بلاطه والكهنة، وأما الطبقة الدنيا منها فتتألف من الحرفيين الصغار. وبالنسبة للمجموعة الثانية فتتكون من العبيد الذين كانوا يعملون في القصور والمعابد وبيوت الأثرياء والأراضي الزراعية[63].

وتبنى مجمع الآلهة الرافدي نظامًا اجتماعيًا مشابهًا لنظيره البشري، فقد اعتمد مبدأ التسلسل الهرمي الطبقي في الحياة الاجتماعية، وتحوي الأساطير كثيرًا من الإشارات التي تؤكد هذا التقليد الإلهي. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في أسطورة الإله إنكي والإلهة ننماخ الخاصة بخلق الإنسان، فقد ورد فيها أن الآلهة تنقسم إلى قسمين: الآلهة الكبرى والآلهة الصغرى. وكان يقع على عاتق الآلهة الصغرى أعمار الأرض، وأما الآلهة الكبرى فيجب عليها مراقبة الصغرى. وجاء فيها أيضًا أن الآلهة الصغرى اشتكت من نوعية العمل، فأخبرت الربة نامو ابنها إنكي بهذه الشكوى، وقالت له: إن الآلهة العظام تضرب أجساد الآلهة الصغار، وطلبت منه أن يصنع بديلًا عن هذه الآلهة ليحمل العناء عنها، فخلق الإنسان الذي أُوكلت إليه الأعمال التي كانت تقوم بها الآلهة الصغار (أعمار الأرض)[64]. ويتبين لنا من هذه الأسطورة أن الفكر الديني الرافدي أعطى الآلهة صفات اجتماعية مطابقة لصفات البشر، فالآلهة العظام في عالمهم الإلهي أشبه بأسياد المجتمع الإنساني الذين يمثلون طبقته العليا، والآلهة الصغرى أشبه بالعبيد

[63]- براندت، إيفلين كلينكل: المرجع السابق، ص: 35-37.
[64]- رشيد، فوزي: الديانة، ص: 171-172.

الذين يمثلون طبقته الدنيا العاملين تحت إمرة الآلهة العظام، ويعانون من ظلمهم. ونعتقد أن من أحد الأسباب التي دفعت الرافديين إلى تقسيم الآلهة على هذا النحو الرغبة في إبراز مبررات خلق الإنسان، والمهام الملقاة على عاتقه (أعمار الأرض)؛ لأن هذه الأسئلة قد تكون راودت أذهان العامة في تلك العصور القديمة، فتنبه لها عباقرة الفكر الرافدي، وصناع الأساطير، فأوجدوا لها هذه الأجوبة بهذه الطريقة.

ويمكن لنا الكشف عن التفاوت الطبقي بين الآلهة بطريقة أخرى تختلف عن الطريقة السابقة، وذلك بالاستناد إلى المهام الموكلة إليها، وبحسب المهام والوظائ، تتربع الآلهة الستة الرئيسة (آن وإنليل وإنكي وإنانا ونانا إله القمر وأوتو إله الشمس) على قمة الهرم الاجتماعي في مجمع الآلهة الرافدي، فهي الآلهة الكبرى التي تدير شؤون الكون الأساسية. فقد عُثر في مدينة فارا (شوروباك) على قائمة بأسماء الآلهة تعود إلى 2600 ق.م، تُعد أقدم قائمة معروفة حتى الآن، تتصدرها أسماء هذه الآلهة[65]، مما يدل على مكانتها وعلو شأنها مقارنة بالآلهة الأخرى. وكما أشرنا قبل شغلت هذه الآلهة هذه المكانة؛ لأنها كانت توفر للإنسان قوته، فهي التي كانت تتحكم بماء الأمطار، والمياه الجوفية، والزراعة، والحصاد. والجدير ذكره أنها لا تقف على قدم المساواة اجتماعيًا، فقد كان آن الأعلى مرتبة بينها، فهو ملك الآلهة، يليه ابنه إنليل الذي كان يتمتع بصلاحيات واسعة في المجمع الديني، ويأتي بعده إنكي الذي يشبه أحد النبلاء من الطبقة الارستقراطية في المجتمع الإنساني، فهو من أقرباء آن وإنليل، وكان يفتخر بهذه القرابة[66]. وتعد الآلهة الثلاثة الأخيرة أكثر رفعة من الآلهة الأخرى، ربما لأنها كانت تتحكم بمياه السماء والأرض التي تعد أساس الحياة. ويلي الآلهة الستة آلهة أخرى تنتمي إلى طبقة اجتماعية إلهية أدنى، وحصل بعضها على ألقاب تدل على علو قدرها، ومع ذلك لا يمكن مقارنتها بالآلهة الكبرى المذكورة آنفًا. ومن أهمها ربة العالم السفلي إيرشكيجال وزوجها نرجال[67]. وكانت إيرشكيجال تلقب بالملكة، مما يدل على مكانتها المرموقة في عالم الآلهة، لكن لقبها لا يعني أنها كانت تنتمي إلى الطبقة نفسها التي تنتمي إليها الآلهة السابقة. ونرجح أن تكون سلطتها قد انحصرت في عالمها السفلي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى زوجها نرجال الذي تزوجها، وحكم معها عالم الأموات[68].

---

[65]- ادزارد. د؛ ويوب. م. هـ؛ رولينغ. ف: المرجع السابق، ص: 23.

[66]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 348.

[67]- عبد الله، فيصل؛ ومرعي، عيد: تاريخ الوطن العربي القديم(بلاد الرافدين)، جامعة دمشق، 2013–2014، ص: 125.

[68]- كورتل، المرجع السابق، ص54.

ويضم مجمع الآلهة آلهة أخرى، ذات مرتبة أدنى من الآلهة السابقة تُسمى الآلهة الحامية، وتنحصر مهمتها في حماية الأرواح والممتلكات وصحة البشر[69]. ومنها الإله نينجيزيدا، الإله الحامي لجوديا أحد ملوك سلالة لاجاش الثانية (2200-2100 ق.م)[70]. وصورته بعض المشاهد الفنية على هيئة رجل يقف إلى جانب جوديًا ماسكًا بيده اليسرى لتقديمه إلى إله أكبر يجلس على عرشه بهدف الحصول على بركته ورضاه. ويتكرر التقليد نفسه في نصب الملك أورنامو (2112-2095 ق.م) مؤسس سلالة أور الثالثة (2112-2004 ق.م)، ففي أحد المشاهد يظهر هذا الملك واقفًا أمام إله القمر نانا الذي كان يجلس على كرسي العرش، ويقف خلفه (خلف أورنامو) إله حامي[71]. ويقدم هذان المشهدان إشارات عن تفاوت طبقي بين الآلهة، فالإله الأكبر الجالس على عرشه أشبه بالملك رأس السلطة، وأما الإله الحامي فيمكن تشبيهه بالموظف الذي يدخل إليه لمقابلته.

ويظهر التفاوت الطبقي بين الآلهة من خلال الزواج بينها، مثل الزواج بين إنانا ودموزي. ويحمل هذا الزواج كثيرًا من الإشارات التي تدل على ذلك. فإنانا تعد سليلة عائلة إلهية مرموقة، فهي حسب إحدى الروايات ابنة الإله إنليل، بينما تذكر رواية أخرى أنها ابنة إله السماء، وهناك رواية ثالثة تقول: إنها ابنة نانا إله القمر، وأخت الإله أوتو[72]. وتذكر إحدى الروايات أن قلبها تعلق بدموزي الذي كان أحد ملوك أوروك في النصف الأول من الألف الثالث ق.م، واختارته ليكون زوجًا لها، ورفعته إلى مصاف الآلهة[73]. لكنه لا يرتقي إلى مكانتها الاجتماعية الرفيعة؛ لأنه يصنف مع الآلهة الشعبية[74] من جهة، ولكونه من أصلٍ بشري[75] من جهة أخرى. ويظهر التمايز الطبقي بينهما من خلال رواية أخرى تقول: إن إنانا لم تكن راغبة بالزواج منه، وفضلت منافسه إنكيمدو الفلاح عليه، وحاول أخوها أوتو إله الشمس إقناعها بالزواج من دموزي قائلًا:

أختاه تزوجي من الراعي[76]

---

[69]- عبد الحق، المرجع السابق، ص45.

[70]- ظهرت هذه السلالة في مدينة لاجاش في عصر الإحياء السومري، وانبعث في عهدها الثقافة واللغة السومرية، ويعتبر جوديا الملك الأهم في هذه السلالة. انظر باقر، المرجع السابق، ص409-410.

[71]- عبد الحق، حسان: المرجع السابق، ص: 45/32.

[72]- ادزارد. د؛ وبوب. م. ه؛ وروليغ. ف: المرجع السابق، ص: 87.

[73]- Kramer. S. M: Le Rite de Mariage Sacré Dumuzi-Inanna, Revue de l'histoire et des religions, Volume(181), Numéro(2), p: 122.

[74]- Joannès. F: Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne, coll. "Bouquins", Robert Laffont, Paris, 2001, p: 246.

[75]- ادزارد. د؛ بوب. م. ه؛ روليغ. ف: المرجع السابق، ص: 131.

[76]- علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ص: 67-68.

ولم تذعن إنانا لأوتو مصرة على الرفض، وردت قائلةً:

أنا لا أتزوج من الراعي،
ولن ألبس ثيابه الخشنة، ولن أقبل بصوفه الخشن،
إني أنا العذراء: سأتزوج من الفلاح[77]،

ومع تمسكها بالفلاح الذي ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية نفسها التي ينتمي إليها الراعي، لا يخلو رفضها للراعي من نظرة طبقية إليه، ومما يؤكد ذلك قولها: لن ألبس ثيابه الخشنة، ولن أقبل بصوفه الخشن. ويعد التفاوت الطبقي بينهما رمزًا لبعض القضايا الحضارية التي حاول الأدباء الرافديون الإشارة إليها من خلال الأساطير (انظر لاحقًا).

ويظهر التفاوت الطبقي أيضًا في زواج الإله البدوي مارتو بالإلهة آدينجكيدو ابنة إله مدينة نيناب[78]. ويتجلى ذلك بالنصيحة التي قدمتها لها إحدى صديقاتها قبل إقامة مراسيم الاحتفال بالزواج محاولةً إثنائها عن الارتباط بالإله مارتو؛ لأنه من أصل بدوي، وليس من سكان المدن، ولن يتمكن من الوصول إلى حياة مرفهة. وقد ورد ذلك في أحد النصوص، ومما جاء فيه على لسان صديقة آدينجكيدو:

يرتدي جلود الخراف
يسكن تحت خيمة (معرضة) للرياح والأمطار
لا يقدم التضحيات[79]

وفي موضع آخر ورد ما يلي:

يأكل اللحم نيئًا
يمضي حياته دون بيت
وعندما يموت لا يدفن حسب الطقوس[80]

لم تصغِ آدينجكيدو إلى نصيحة صديقتها، وردت عليها قائلة:

على الرغم من كل شيء سأتزوج مارتو[81]

ونتساءل هنا: لماذا أظهر مؤلف هذه الأسطورة التمايز الطبقي بين مارتو وآدينجكيدو؟ نعتقد أن الأمر لا يتعلق بهما، بل بمن كان يعبدهما، فهما رمزان لصنفين من السكان: البدو الأموريون الرحل (مارتو)، وسكان المدن المتحضرون (آدينجكيدو).

---

[77] علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ص: 69.
[78] تقع بالقرب من مدينة جيرتاب التي تقع إلى الجنوب من مدينة بابل؛ الشواف، قاسم: المرجع السابق، جـ3، ص: 23.
[79] الشواف، قاسم: المرجع السابق، جـ3، ص: 31.
[80] المرجع نفسه، ص: 31.
[81] المرجع نفسه، ص: 31.

وكما نعرف فحياة الاستقرار التي يعيشها سكان المدن هي أرقى بكثير من حياة البدو الرحل؛ لذلك أبرزت الأسطورة التفاوت الطبقي بين الإله والإلهة الذي يرمز إلى فروق اجتماعية كبيرة بين البدو الرحل وسكان المدن. لكن ما سر إصرار آدينجكيدو على الزواج من مارتو مع انتمائها إلى طبقة اجتماعية أرقى؟ يبدو لنا أن ذلك يرمز إلى إصرار الأموريين على الزحف من البادية السورية[82] إلى المدن الرافدية التي سيطروا عليها لاحقًا، وأسسوا فيها إماراتهم، ونتيجة لذلك تحولوا إلى أناس متمدنين.

2- الزواج والحمل والولادة وتكوين الأسر الإلهية:

بحسب المعتقدات الرافدية القديمة كان مجمع الآلهة الرافدي يضم آلهة مذكرة ومؤنثة، وهم كالبشر يأكلون ويشربون، ويمتلكون الخدم والمنازل[83]، ويعشقون ويتزوجون وينجبون الأولاد، وكان هؤلاء الأولاد آلهة[84]، لهم وظائفهم. وكان كل زوج من الآلهة يشكل أسرة تشبه في الكثير من صفاتها الأسرة البشرية. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الزيجات في عالم الآلهة كان لها طابع رمزي، الهدف منها تفسير مسألة كونية كخلق الكون، أو الإشارة إلى ظاهرة طبيعية تهم الناس، أو إلى قضية حضارية ترتبط بشعب من الشعوب.

ومن أهم هذه الزيجات زواج الإله آن بالربة نامو الذي تحدثت عنه إحدى الأساطير السومرية قائلةً :إن من مياه البحر الأزلية (نامو) وُلد جبل كوني يمثل السماء (آن كعنصر مذكر) والأرض (كي كعنصر مؤنث)، متحدتين مع بعضهما، ونتيجة اتحادهما خُلق إنليل إله الهواء[85]. وقام هذا الأخير بفصل السماء عن الأرض، فحمل أبوه الإله آن السماء، بينما حمل هو الأرض. وبعد فصلهما خُلقت الكواكب والنجوم، وبرزت مظاهر الحياة على الأرض[86]. ويتبين لنا من هذه الأسطورة أن الرافديين استخدموا ظاهرتي الزواج (زواج الإله آن بالربة كي) والإنجاب (إنجاب إنليل) الشائعتين بين البشر لإبراز كيفية خلق الكون، وظهور الحياة على الأرض.

وتناولت أسطورة أخرى زواجًا إلهيًا آخر، له هدف آخر، يختلف اختلافًا كليًا عن الزواج السابق، وهو شبيه بالزواج بين البشر في الكثير من التفاصيل. إنه الزواج الذي كان يتم سنويًا بين الراعي الصالح الإله دموزي (تموز) والربة إنانا (عشتار) في فصل

---

[82]- انطلق الأموريون من البادية السورية باتجاه المدن الرافدية؛ انظر: ساغز، هاري: المرجع السابق، ص: 53.

[83]- بارندر، جفري: المرجع السابق، ص: 12.

[84] بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 258.

[85] هبو، أحمد رحيم: معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين، دار القلم العربي، ط1، 2003، ص: 194.

[86] علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص: 194-195.

الربيع. وتعود جذوره إلى بداية الألف الثالث ق.م أو قبل بقليل، وكان يقام سنويًا في مدينة أوروك[87] (مدينة سومرية تقع في إقليم سومر جنوبي بلاد الرافدين). وكان يرمز إلى عودة الحياة إلى الأرض، وتجدد مظاهر الخصب فيها. لكن على خلاف البشر لم يثمر هذا الزواج بالإنجاب[88]؛ لأن الإله تموز كان يموت سنويًا، وينزل إلى العالم السفلي، ولا يعود إلى العالم العلوي إلا في فصل الربيع ليعقد قرانه من جديد على عشتار. إنه زواج مؤقت[89] ورمزي، يعبر عن دورة الحياة في الطبيعة، وتعاقب الفصول. تطور لاحقًا، إذ إنه لم يعد يقام بين تموز وعشتار، بل بين الملك ممثل تموز وكبيرة الكاهنات ممثلة عشتار[90].

وتظهر التقاليد البشرية بشكل واضح في هذا الزواج بدءًا من لحظة اختيار إنانا (عشتار) لدموزي للاقتران به وصولًا إلى لحظة المضاجعة. ويصف الشاعر السومري ذلك قائلًا:

ألقت (إنانا) نظرة على كل الناس
دعت دموزي ليكون إلهًا على البلاد
دموزي، حبيب إنليل
أحبته أمي
أبي رفع قدره[91]

ويتابع وصفه لهذا الزواج قائلًا: استحمت (إنانا)، ودلكت جسدها، وارتدت ملابسها الجميلة، وذهبت مع دموزي إلى بيتها، وجوده إلى جانبها غمرها بالحب. وفي النهاية يذكر الشاعر ما قالته الربة إنانا واصفًا رغبتها بالعلاقة الجنسية مع دموزي:

من أجلي فرجي
من أجلي الرابية المرتفعة
من أجلي، أنا العذراء، من أجلي، من يحرثه لي؟
فرجي، أرض مروية، من أجلي
أنا الملكة، من يقود الثور إلى هناك؟
من سيحرث فرجي؟

---

[87]- Kramer. S. M: op. cit, p:122.
[88]- Joannès. F: op. cit, p: 423.
[89]- Joannès. F: op. cit, p: 423.
[90]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص: 47-48.
[91]- Kramer. S. M: op. cit, p:123.

ثم يأتيها الجواب من دموزي:
أيتها السيدة الجليلة، الملك سيحرثه من أجلك
دموزي، الملك، سيحرثه من أجلك
ثم ترد إنانا بسرور قائلة:
احرث فرجي إذن
يا رجل قلبي، احرث فرجي[92]

ويذكر الشاعر السومري أيضًا أن إنانا غسلت صدرها المقدس مرة أخرى، وسكنت مع زوجها دموزي في بيته، بيت الملك، ونمت النباتات في المنطقة المجاورة لهذا البيت، بيت الحياة، وعاشت بسرور معه، وطلبت منه أن يجلب لها الحليب الطازج، الدسم[93].

ومن خلال هذه الرواية نلاحظ أن الشاعر السومري وصف العلاقة بين إنانا ودموزي كمن يصف العلاقة بين عشيقين من البشر. ويبرز ذلك جليًا من خلال اختيارها وعشقها له وولعها به، وتحضير نفسها لليلة العرس، وعدم قدرتها على مقاومة رغبتها الجنسية اتجاهه، تلك الرغبة التي تربط بين الأزواج عادة، والعيش معه بسرور تحت سقف واحد.

ونستنتج من هذا الوصف الأسطوري لهذه العلاقة أن الفكر الديني الرافدي أراد –من خلال إعطاء الآلهة صفات بشرية– الإشارة إلى مسألة عودة الخصوبة والحياة إلى الطبيعة، ومما يؤكد ذلك ورود عبارتي نمت النباتات، وبيت الحياة في الأسطورة، ففيهما دلالة واضحة على ذلك. ومن غير المستبعد أن تكون لهذا الزواج دلالات حضارية ترتبط بالحياة اليومية للرافديين، ففي عبارة دلكت جسدها إشارة إلى النظافة، وفي عبارة طلبت أن يجلب لها الحليب الطازج دلالة على تدجين الحيوان والاستفادة منه، والحياة المستقرة التي كان يعيشها الإنسان الرافدي آنذاك.

وذكرنا سابقًا أن هناك رواية أخرى، وردت فيها عدم رغبة إنانا بالزواج من دموزي، وتفضيلها الفلاح إنكيمدو عليه. وذكرنا أيضًا أن حوارًا دار بينها وبين أخيها أوتو إله الشمس ليقنعها بالزواج منه، والتخلي عن إنكيمدو الفلاح. هذا الحوار مستمد من تقاليد الخطبة والزواج الشائعة في المجتمع الرافدي القديمالتي لا تزال مستمرة حتى أيامنا هذه. بدأ أوتو حواره مع أخته إنانا بمفاتحتها بقضية الزواج بشيء من الأناة والتبسط لإقناعها به؛ لأنه من المسائل الحساسة في حياة كل فتاة، ولا يمكن إتمامه إلا بهذه الطريقة.

---

[92]– ولكشتاين، دايان؛ وكريمر، صموئيل نوح: إينانا ملكة الأرض والفردوس، أسطورة بلاد ما بين النهرين، ترجمة: وتقديم شاكر الحاج مخلف، د.ت، ص: 62.

[93]– Kramer. S. M: op. cit, p: 123.

واستفتح الحديث قائلًا لها: سأجلب لك كمية من الكتان كهدية. ثم تسأله: من سيمشط ألياف الكتان؟ يقول لها: سأجلبه ممشوطًا. ثم تسأله من سيغزله؟ فيقول لها سأجلبه مغزولًا. ويستمر هذا الحوار بينهما متناولًا جميع المراحل الأخرى التي يمر بها الكتان (برم وصباغة وحياكة) حتى يصبح غطاء الفراش جاهزًا[94]. وتُظهر مقتطفات أخرى من الحوار أن الغطاء كان مخصصًا لفراش العرس الذي سيشاركها فيه دموزي الراعي الذي جاء لخطبتها راغبًا في الزواج منها. ولم توافق في البداية مبديةً رغبتها في الزواج من إنكيمدو الفلاح الذي سيملأ المخازن بالحبوب. ولم ييأس أوتو، واستمر في الحوار معها محاولًا إقناعها بإبراز محاسن دموزي، لكنها أصرت على رفضها. وفي النهاية تدخل دموزي بنفسه مبديًا استعداده لتقديم كل ما هو غالٍ ونفيس لها لتقبل به زوجًا، فغيرت كلماته موقفها وقبلت به مفضلةً إياه على إنكيمدو الفلاح[95].

ويتبين من الحوار انعكاس عادات الزواج السائدة في المجتمع البشري الرافدي القديم على مجمع الآلهة. ويتجلى ذلك بمسألة مفاتحة الفتاة بموضوع الزواج من قبل ولي أمرها (أخيها)، وترغيبها بالخاطب بالهدية تارة، وبذكر محاسنه تارة أخرى. إن رفضها الزواج لمن يتقدم لخطبتها، وتفضيلها غيره، وتقديم النصيحة لها من قبل أهلها، والاقتناع بها أو عدم الاقتناع بها، هو أمر وارد في المجتمعات الإنسانية، انعكس على مجمع الآلهة. وكان يتوجب على الخاطب في بلاد الرافدين القديمة تقديم مهر لعروسه[96]، يتفق عليه مع أهلها قبل الخطوبة[97]. وبرز هذا التقليد في خطبة دموزي لإنانا حينما أبدى استعداده لتقديم كل ما هو غالٍ ونفيس لها إذا ما قبلت الزواج منه.

والسؤال المطروح هنا: ما السبب الذي دفع الرافديين إلى تبني التقاليد الشائعة في المجتمع البشري، المتمثلة بالمنافسة بين الإلهين (الراعي والفلاح) للفوز بقلب العروس إنانا، بصرف النظر عن الفائز؟ ربما يكون سبب ذلك الرغبة في إبراز دوريهما المتكاملين في بناء الحضارة، فكلاهما يساعد في تطورها واستمرارها، ولا يمكن الاعتماد على أحدهما دون الآخر. ومما يؤكد ذلك حضور الفلاح عرس الراعي[98]، وفي ذلك إشارة واضحة للعلاقة الودية بينهما –مع المنافسة على قلب إنانا– التي ترمز إلى التكامل

---

[94]– علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ص: 63.

[95]– Kramer. S. M: op. cit, p: 125-126.

[96]– كلينكل، هورست: حمورابي البابلي وعصره، ترجمة: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة لدراسات والترجمة والنشر، اللاذقية، 1990، ص: 225.

[97]– حمادي، صباح جاسم: الجذور التاريخية للزواج في بلاد الرافدين، مجلة كلية الآداب، العدد(102)، ص: 109.

[98]– الشواف، قاسم: المرجع السابق، جـ3، ص: 28.

الاقتصادي بين الطرفين في توفير أقوات الناس. وربما يكون سبب تمحور الحوار حول غطاء فراش العرس المصنوع من الكتان الرغبة في إظهار تقدم حضارة بلاد الرافدين؛ لأن الكتان هو نبات يُزرع ويُحصد ثم يُستخدم في صناعة الأقمشة، ولا يمكن لهذه العمليات المتتالية أن تتم لولا وجود حضارة متقدمة، وإنسان عبقري ينميها ويدير شؤونها.

وعلى خلاف العلاقة الشرعية بين تموز وعشتار التي تشبه العلاقة بين العشاق في المجتمعات البشرية، تناولت إحدى الأساطير الرافدية العلاقة غير الشرعية بين الإله إنليل وزوجته الربة ننليل (سيدة النسيم، وهي إحدى ربات الأمومة) التي نتج عنها الإبن غير الشرعي سين/نانا[99] الذي أصبح إلهًا للقمر. وقد ذكرت الأسطورة أن أم ننليل نصحتها بالاستحمام في قناة تسمى نوبيرا، وقالت لها: إن الإله إنليل (إله الهواء) سيأتي لمغازلتها، وعليها ألا تمانع ذلك[100]، واستجابت ننليل لنصيحة والدتها بالاستحمام بالقناة، لكنها لم تستجب لها بمغازلة إنليل، ورفضت مجامعته. وإزاء هذا العزوف قام إنليل باغتصابها[101]، وحملت بابنها سين، فغضبت الآلهة منه، فنفته إلى العالم السفلي[102]، ولحقت به زوجته ننليل، فتضايق من ذلك، ولاسيما أن ابنه الذي يمثل القمر في السماء سينزل إلى عالم الظلام، فعالمه الحقيقي هو السماء التي يبث منها نوره إلى جميع أنحاء العالم، فدبر حيلة، استطاع بفضلها تحرير ابنه الذي صعد إلى موطنه في السماء[103].

ونلاحظ ممَّا سبق أن الأسطورة استخدمت عادتين منبوذتين أخلاقيًا شائعتين في المجتمعات البشرية، هما الاغتصاب والحمل غير الشرعي. إنه استخدام رمزي، الهدف منه تفسير ظاهرتين طبيعيتين: الأولى تتعلق بإنليل كإله للهواء والعواصف والأعاصير الهوجاء التي لا يستطيع أحد أن يقف بوجهها؛ لذلك صورته الأسطورة على هيئة رجل أهوج، لا يستطيع التحكم بغرائزه وبتصرفاته، أو تقدير عواقبها، التي قادته إلى اغتصاب ننليل[104].

وأما الثانية فترتبط بطبيعة القمر وبأطواره التي يمر بها خلال دورته الشهرية، فتارة يكون مضيئًا، وتارة خافتًا، وتارة أخرى يكون معتمًا، فهو أشبه بالابن غير الشرعي[105] الذي لا يثبت على سلوكيات قويمة (الإضاءة المستمرة)، بل كان منحرفًا في سلوكياته

---

[99]- اسمه بالسومرية نانا، وبالأكادية سين، مراكز عبادته الرئيسية أور في جنوبي بلاد الرافدين، وحران في شمالها، يُصور على شكل هلال بقرنين؛ انظر: ادزارد. د؛ وبوب. م. ه؛ رولينغ. ف: المرجع السابق، ص: 81-82.

[100]- رشيد، فوزي: الديانة، ص: 153.

[101]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 264.

[102]- نعمة، حسن: المرجع السابق، ص: 159.

[103]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 340-341.

[104]- رشيد، فوزي: الديانة، ص: 154.

[105]- سليم، أحمد أمين: المرجع السابق، ص: 341.

(الإضاءة الخافتة والظلام الدامس). وفي نزول سين إلى العالم السفلي، عالم الظلام، وتحرره منه إشارة لطبيعة القمر، فعندما يختفي في عدد من أيام الشهر (نزوله إلى العالم السفلي) يغدو الكون مظلمًا، وعندما يعود مضيئًا في أيام أخرى (تحرره من العالم السفلي) يُنار الكون بنوره.

وتناولت إحدى الأساطير زواجًا إلهيًا آخر شبيهًا بزواج البشر، له رمزية خاصة تختلف عن رمزية الزيجات السابقة. إنه زواج إله البدو الأموريين مارتو من الفتاة الجميلة آدينجكيدو ابنة إله مدينة نيناب. تذكر الأسطورة أنه من أصول بدوية، كان يسكن البادية، وفي أحد الأيام دخل مدينة نيناب، وكان في عنفوان الشباب، وبرز في عيد المدينة؛ إذ تغلب على خصومه في مصارعات العيد، ولم يقبل بمكافأة إله المدينة المادية طالبًا الزواج من ابنته التي تميزت بجمالها، وقد تم له ما أراد[106]. ويرمز هذا الزواج إلى تحضر البدو الأموريين[107] الذين انطلقوا في نهاية الألف الثالث ق.م من البادية السورية باتجاه بلاد الرافدين على شكل غزاة، وساهموا في إسقاط حكم سلالة أور الثالثة (2112–2004 ق.م)، وأسسوا ممالك لهم هناك استمرت خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م (مملكة إشنونا، ومملكة إسين، ومملكة لارسا، والمملكة البابلية القديمة، ومملكة ماري). و تحمل هذه الأسطورة العديد من الإشارات التي تدل على هذا الحدث العظيم، فدخول مارتو إلى المدينة قد يكون رمزًا لبداية تسلل الأموريين إلى المدن، و تغلبه على خصومه في مصارعات العيد ربما يرمز إلى تفوق الأموريين على خصومهم، و الانتصار عليهم، و وصولهم إلى هدفهم بتأسيس الممالك الأمورية.

وعرف مجتمع الآلهة الرافدي زيجات أخرى شبيهة بزيجات البشر، فمعظم الآلهة المذكرة تزوجت من آلهة مؤنثة، ونتج عن ذلك تكوين أسر إلهية، وإنجاب آلهة مذكرة ومؤنثة، لها مكانتها ووظائفها في مجمع الآلهة الرافدي. لا يهدف هذا الزواج إلى تفسير مسألة كونية، أو الرمز إلى خصوبة الطبيعة، أو إظهار الطبيعة الهوجاء لبعض الآلهة، بل كان يهدف إلى تكوين أسر للآلهة شبيهة بأسر البشر، وإظهار أصول الآلهة وأنسابهم كما هي الحال في المجتمع الإنساني. ومن الأمثلة على ذلك اقتران ربة الطب جولا بالإله بابل–زاك الذي نتج عنه تشكيل أسرة إلهية مكونة منهما ومن ابنهما دامو وابنتهما غونورا[108].

---

[106]– الشواف، قاسم: المرجع السابق، ج3، ص: 23.

[107]– المرجع نفسه، ص: 24.

[108]– الحسيني، عباس علي: مملكة إيسين بين الإرث السومري والسيادة الأمورية، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004، ص: 23.

خامسًا: الحروب والثورات:

لم تشتعل الحروب بين البشر فحسب، بل دارت رحاها بين الآلهة أيضًا، ومن الأمثلة عليها ما جاء في أسطورة الخلق البابلية (إنما في العلى) التي تناولت الحرب التي دارت بين مردوخ وتيامات بعد أن قُتل زوجها الأبسو على يد إيا إله الحكمة. وقد جاء فيها أن الأبسو نوى قتل أولاده (الآلهة) بعد أن كثر ضجيجهم وحرموه من النوم، لكن الإله إيا علم بذلك، فابتدع تعويذة ذات قوة خارقة جعلت أبسو ينام بعمق وآنذاك انقض عليه وقتله[109]. وحاولت زوجته الانتقام له، غير أن مردوخ الذي نُصب في تلك الأثناء ملكًا على الآلهة الأخرى وقف لها بالمرصاد، وخاض حربًا ضدها، فانتصر عليها وقتلها وشطر جسدها إلى شطرين، وجعل من الأول السماء، ومن الثاني الأرض[110]. تهدف هذه الأسطورة إلى ذكر كيفية خلق السماء والأرض، لكن ليس من خلال الزواج بين الآلهة هذه المرة (الأسطورة السومرية)، بل من خلال الحرب التي تشبه إلى حد كبير الحرب بين البشر، فالأبسو قُتل كما يقتل البشر، وزوجته تيامات حاولت أن تنتقم له كما يَنتقم البشر، وهُزمت كما يُهزم البشر. وهناك ملكٌ منتصر اسمه مردوخ، تميز بقوته، ورد ذكره في نص يعود إلى نهاية الألف الثاني ق.م، وصفه كما لو أنه يصف قائدًا عسكريًا مقدامًا، يهابه الجميع:

حينما تنطلق إلى الحرب، تتهاوى السماوات،
حينما ترفع الصوت، يضطرب البحر.
حينما تستل سيفك، يتقهقر الآلهة

وفي موضع آخر من النص يرد ما يلي:

وتلتهب أسلحتك في العاصفة
لهيبك يلاشي أكثر الجبال وعورة[111]

لو تأملنا النص قليلًا نلاحظ أن الشاعر استعار بعض المفردات من عالم البشر، فبقوله: تنطلق إلى الحرب، وترفع الصوت، وتستل سيفك، يتبادر إلى الأذهان أنه يصف محاربًا من البشر، يتميز بقوته وجبروته. ووردت في هذا النص مفردات أخرى تُبرز قوة أسلحة مردوخ، وتأثيرها في المعركة (**وتلتهب أسلحتك في العاصفة**)، تماثل إلى حد ما بعض ما ورد في وثيقة نصر الملك نبوخذ نصر الأول (1124-1103 ق.م)[112] على

[109]- علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 44.
[110]- علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ص: 195.
[111]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 254.
[112]- إنه رابع ملوك سلالة إسين الثانية، وأكثرهم قوة؛ انظر: الحسيني، عباس علي: المرجع السابق، ص: 74.

اللولوبيين والآراميين والكاشيين واحتلاله بلاد عيلام التي جاء فيها: **عندما كانت الفؤوس تلتهب كالنار بأيدي الجنود**[113]. وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على التأثير الإنساني العميق في عالم الآلهة. ونعتقد أن الأديب الرافدي صور مردوخ على هيئة قائد محارب ليبرز قوة البابليين من خلاله، فهو إلههم القومي الذي بدأ يحتل هذه المكانة المميزة بين الآلهة الرافدية منذ العصر البابلي القديم حينما أصبحت بابل عاصمة لدولة مترامية الأطراف[114]. وذكرت إسطورة الطوفان البابلية (قصة أتراخاسيس) أخبار إحدى الثورات التي قامت بها الآلهة الصغرى ضد الآلهة الكبرى، وكان الهدف منها إبراز المبررات التي جعلت الآلهة يخلقون البشر. وقامت بهذه الثورة مجموعة الآلهة المعروفة باسم ايكيكي التي أُوكل إليها مهمة إصلاح الأرض وإعمارها. لقد كان شغلهم ثقيلًا، وجهدهم كبيرًا؛ لأن الآلهة العظام فرضوا عليهم سخرة سبعة أضعاف[115]. وشعرت هذه المجموعة بالعناء والتعب جراء هذا العمل المضني، فأعلنت الحرب على إنليل رئيس الآلهة[116].

وأضرموا النار في أدواتهم التي كانوا يستخدمونها في أعمالهم كالمساحاة، وحملوها مشتعلة إلى باب الإله إنليل. فوقفت الآلهة العظام إلى جانبهم، وأبلغت إنليل بأن عملهم مضنٍ ومتعب. فقرر هذا الأخير مع الآلهة العظام إراحتهم بخلق الإنسان ليحمل العناء والتعب عنهم[117]، وأوكلت إليه مهمة إعمار الأرض. وتُبرز هذه الأسطورة الملامح البشرية للآلهة ايكيكي، فهم أشبه بالإنسان المعذب الذي عانى من ظلم سيده، بسبب المهام الجسيمة الملقاة على كاهله، فأراد أن يحرر نفسه مما هو فيه، فأعلن ثورته ضده مطالبًا بحقوقه، وفي النهاية استطاع الحصول عليها. ونستنتج من هذه الأسطورة التي صورت الآلهة على شكل البشر، أن المفكرين الرافديين كانوا يريدون تحديد الدوافع التي جعلت الآلهة تخلق البشر. ونعتقد أن هذا السؤال كان يتبادر إلى ذهن عامة الناس، فأجابت عنه الأسطورة من خلال الثورة التي فجرها صغار الآلهة ضد الآلهة العظام.

الخاتمة:

نستنتج مما سبق أن الإنسان الرافدي أعطى آلهته صفاتٍ بشرية بدءًا من شكلها الخارجي مرورًا بأنشطتها السياسية والإدارية وسلوكها الاجتماعي، وانتهاءً بالحرب والقتال. وكما رأينا، وكان لهذه الصفات الإنسانية مدلولات خاصة، أراد الفكر الرافدي من

[113]- الجبوري، صلاح سلمان: المرجع السابق، ص: 40.
[114]- رشيد، فوزي: الديانة، ص: 162.
[115]- بوتيرو، جان: المرجع السابق، ص: 270.
[116]- علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، ص: 48.
[117]- المرجع نفسه، ص: 48-49.

خلالها إيصال أفكاره إلى الناس بأسلوب مبسط، فمن خلال الهيئة البشرية التي مثلها بالفن صور بعض طقوسه الدينية، وأظهر خصوبة الطبيعة، وتأييد الآلهة الكبرى للملوك في مشاريعهم الحضارية وحروبهم. وتمكن أيضًا من تقديم إجابات عن أسئلة تتعلق بإدارة الكون، وذلك بإعطاء الآلهة صفات إنسانية ووظائف على المستويين السياسي والديني، فهذا الكون–حسب ما ذهب إليه هذا الفكر– يدار من قبل آلهة أشبه بالموظفين الذين يتوزعون على المؤسسات الحكومية، ويخضعون لقرارات آلهة أعلى منهم. وتبين لنا أيضًا أن تقسيم الآلهة إلى طبقات كطبقات البشر، كان يهدف إلى إبراز التفاوت بينها حسب المهام الموكلة إليها، والإشارة إلى بعض القضايا الحضارية. وللزواج بين الآلهة الذي يشبه الزواج بين البشر دوره في تفسير بعض المسائل الكونية، مثل خلق الكون، وعودة الخصوبة للطبيعة، وحدوث الأعاصير، وإنجاب الآلهة. والجدير ذكره أن حروب الآلهة وثوراتها التي خلدتها الأساطير القديمة كانت تسعى إلى إيجاد مبررات لخلق الكون والإنسان.

المراجع:

المراجع العربية والمترجمة:

1. ادزارد. د؛ بوب. م. هـ، رولينغ. ف: قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب: محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987.

2. بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، 1993.

3. باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، جـ1، ط1، دار الوراق، بيروت، 2009.

4. براندت، إيفلين كلينكل: رحلة إلى بابل القديمة، ترجمة: زهدي الداوودي، دار المدى للثقافة والنشر، 2010.

5. البرواري، ريبر جعفر أحمد: الحملات العسكرية الآشورية على كوردستان، (911-612)ق.م، ط1، دار الموكرياني للطباعة والنشر، أربيل، 2012.

6. بوتيرو، جان: بلاد الرافدين الكتابة-العقل-الآلهة، ترجمة: الأب البير أبونا، مراجعة وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.

7. الجادر، وليد: الأزياء والأثاث، حضارة العراق، جـ4، بغداد، 1985.

8. الجادر، وليد: النحت في عصر فجر السلالات، حضارة العراق، جـ4، بغداد، 1985.

9. الجبوري، صلاح سلمان: أدب الحكمة في وادي الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

10. الحسيني، عباس علي: مملكة إيسين بين الإرث السومري والسيادة الأمورية، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004.

11. حمادي، صباح جاسم: الجذور التاريخية للزواج في بلاد الرافدين، مجلة كلية الآداب، العدد(102)، 2012.

12. حنون، نائل: حينما في العلى قصة الخليقة البابلية، دار الزمان، دمشق، 2006.

13. رشيد، فوزي: حجر حدود من زمن الملك مردوك شابك زيري، سومر، المجلد(32) ، بغداد، 1976.

14. رشيد، فوزي: المعتقدات الدينية، حضارة العراق، جـ1، بغداد، 1985.

15. ساغز، هاري: عظمة آشور، ترجمة: خالد أسعد عيسى، سامي سبانو، ط1، دار رسلان، دمشق، 2008.

16. سليم، أحمد أمين: حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2011.
17. سمار، سعد عبود؛ وحسين، عامر ناجي: مجالس المدن في العراق القديم (3000-1000)ق.م المهام والتأسيس، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد(14)، 2013.
18. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وأكد وآشور، جـ1، ط1، دار الساقي، بيروت، 1996.
19. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، جـ3، ط1، دار الساقي، بيروت، 1999.
20. عبد الحق، حسان: المؤثرات الدينية في الفن في الفترة الممتدة من بداية عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان(123-124)، 2013.
21. علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسمارية، مطبعة الإخلاص، 1975.
22. علي، فاضل عبد الواحد: الأدب، حضارة العراق، جـ1، بغداد، 1985.
23. علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1996.
24. علي، فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، ط1، دمشق، 1999.
25. كريمر، نوح صموئيل: هنا بدأ التاريخ (حول الأصالة في حضارة وادي الرافدين)، ترجمة: ناجية المراني، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980.
26. كريمر، صموئيل: من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، د. ط، مؤسسة فرانكلين للطباعة، د. ت.
27. كلينكل، هورست: حمورابي البابلي وعصره، ترجمة: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة لدراسات والترجمة والنشر، اللاذقية، 1990.
28. كورتل، آرثر: قاموس أساطير العالم، ترجمة: سهى الطريحي، دار نينوى، دمشق، 2010.
29. مرعي، عيد: عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016.
30. مهران، محمد بيومي: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، جـ2، د.ط، دار المعرفة الجامعية، د.ت.

31. نعمة، حسن: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، 1994.

32. هبو، أحمد رحيم: معالم حضارة الساميين وتاريخهم في سورية وبلاد الرافدين، ط1، دار القلم العربي، 2003.

33. ولكشتاين، دايان؛ وكريمر، صموئيل: نوح، إينانا ملكة الأرض والفردوس، أسطورة بلاد ما بين النهرين، ترجمة وتقديم: شاكر الحاج مخلف، د.ت.

المراجع الأجنبية:

1. Boustani M.H., "Le Néolithique de Liban dans le contexte proche-oriental. Etat des connaissances" Annales d'Histoire et d'Archéologie, Université Saint-Joseph, Beyrouth, Vol.12-13, 2001-2002, p.1-39.

2. Frankfort H., Cylinder Seals, a documentary essay on the art and religion of the ancient Near East, London : Macmillan and Co., 1939.

3. Joannès F., Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne (collectif), coll. " Bouquins ", Robert Laffont, Paris, 2001.

4. Kramer S.M., Le Rite de Mariage Sacré Dumuzi-Inanna, Revue de l'histoire et des religions, Volume 181, Numéro 2, p.120-146.

5. Margueron J-Cl., Mari - Métropole de l'Euphrate, au IIIe et au début du IIe millénaire av J.-C., Editions Picard et ERC, Paris, 2004.

6. Stone M.، "Quand Dieu était Femme", - Editions l'Etincelle, Montréal, Paris,1989.